

من بنى جلدتها ، يدخل بسرعة
ويطلق الباب وراءه بدقة وحذر
فحدقت «مى» في وجهه وسألته
بصوت رن صدهاء في جوانب
الغرفة :

— ماذا تريد ؟ ألا تعلم أن
هذه غرفتي الخاصة وليست ندبا
مشاعا ؟

شجرة الممرات

للكاتب ل . غارمات
بقلم الأديب ناجي الطنطاوي

كان الداخل فتى يافعا جميل الطلعة برغم المبوس
المشوم الذي شوه ملامحه ، وكان ينظر بعينه المظلمتين
كالمتوه . ومارأته «مى» حتى ارتد فكرها إلى مناظر
القنص بواسطة الخيل ، وإلى الوعل المسكين في الزابات
ثم قالت تحدث نفسها :

— إنه ممرض للفج الشمس كما أظن
ولكن الرجل لم يدعها تتابع تفكيرها طويلا ،
بل فاجأها بقوله :

— إياك أن تبدي حراكا .
وسحب خنجره من تحت ممطفه وشهره في
وجهها قائلا :

— إنني يائس . لم يعد لدى أدنى تردد في قتلك
فاستولى على «مى» تهيج نفسى مفاجئ اضرب
له كل جسمها ، ولكنها جاهدت أن تكتمه وتجلدت
ما أمكنها التجلد

كانت «مى» ذات جمال ساحر ، وذات ملامح
متناسقة ، وبظهر أن سنهم تجاوز الخامسة والعشرين
ومهما بالغنا في ذلك فلن نستطيع أن ندعي أنها تجاوزت
الثلاثين . كانت قامتها متوسطة الطول ولكن الشجاعة
لا تقاس في نظرها بالسنتيمترات . وعادت فألفت
عليه مؤالها للمرة الثانية دون أن تم عضلة من عضلات

كانت الساعة تدق الثامنة ، في ناقوس السكرتارية
التي تقع في الجهة المقابلة للحديقة . وكانت الليلة
شديدة الحرارة والروحة الكهربائية تدور بسرعة
هائلة في الغرفة التي كانت «مى» ترتدى فيها ثيابها
استعدادا لتناول طعام العشاء

كانت منهمكة في زينتها الدقيقة ، ولكنها لا تزال
على اتصال بالحياة خارج الغرفة ، إذ أنها كانت تسمع
ضحيج الشارع ، وكانت دارها محاطة بحديقة صغيرة
ملأى بالزهور المحفوظة من أشعة الشمس طيلة العام ،
وكانت هذه الزهور حمراء بلون الدم تغطي الأرض
كلها . وكان يصلها من النافذة شذى نفحات
النباتات والورود مع النسيم الأريج ، والبيوت في
الشرق تكون عادة ممتوحة النوافذ لجميع الجهات
كانت «مى» تشاهد خيالها في صفحة المرآة
وتبتسم ، ولما أتمت زينتها ، سمعت صريرا ، فالتفت
فاذا بباب غرفتها يفتح

غضبت «مى» لهذه المفاجأة ، وارتدت للوراء
قليلا كي توضح القدام وتمنعه ، وقد حسنته خادما ،
والخادم لا يسمح له أن يدخل بلا استئذان إلا مرة
واحدة للضرورة ، ولكن نددت منها صيحة دهش
وذهل عند ما رأت رجلا أبيض البشرة لأسودها ،

وجهما عن النعم والسكند اللذين أصابا نفسها :

— ماذا تريد ؟

فأجاب الرجل بصوت منخفض مضطرب :

— مالا بالطبع

فأعرضت عنه بازدراء واستخفاف ، وقالت

في نفسها :

— ليس لي من وسيلة أحسن من رفع صوتي

أو أضغط هذا الزر للكهربائي فيتسابق الخدم نحوي

ويكونون طوع أمصرى

ولكن الخبيث أدرك ما يجول بخاطرهما فصاح

بها في وحشية وفظاظة :

— ابتعدى عن هذا الجرس !

فلم تتحرك « م » بل أجابته بهدوء :

— سيكون باستطاعتي أن أضغط على زر الجرس

دون أن تعلم بذلك ، ولكنى لن أفعل ، لأننى موقنة

أنك لست مالكاً لشعورك الآن ، وستعود سريعاً

إلى حالك الطبيعية

قالت ذلك ، وظهرت على وجهها ابتسامة صغيرة

كلها تهكم وهزء وسخرية

فتبدل لون وجه الرجل من التهيج والجنون

وصاح بها :

— أعطبنى المال حالا ، أسألك بالله

وصرت على وجهه سحابة مظلمة ، فلم تجب

« م » سؤاله رغم الاضطرابات الجنونية التى كانت

تثور في قلبها التشنج ، بل اندفعت تقول له :

— إننى أعمل بلا انقطاع ولا توقف لكى أعيش

وأنا وحيدة في هذه البلدة . إننى أكتب قصصاً

وروايات لبعض المجلات الأوربية ، أفتباع بك البلاهة

إلى اللذان بأننى سأقدم هذا المال الذى أحرزته بمشقة

ونصب لأول شخص زرى الهيثة سافل يطلبه منى ؟

إن كنت تتصور هذا فأنت مجنون ولا ريب .

واسمح لى أن أصارحك للقول بأننى أحتقر الخضوع

لأوامر تملى ، وعلى الأخص إذا كانت تملى بمجد

السيف !

فأجابها الرجل بصوت أكثر شراسة وقد

أحفظه كلامها :

— إننى أقول لك إن المال يلزمنى مهما كان

التمنى ... !

وخطا نحوها خطوة ... ولكنها بقيت رابطة

الجأش وقالت له :

— أنا أهزأ بك وبطلبك ... ألا تصنع مثلى ؟

إننى نظمت حياتى تماماً وأنا لست إلا امرأة ، والمرأة

أدنى من الرجل كما يزعمون ! أجل ، تستطيع أن

تضحك ، سأدعك تقترف جريمة دون أن أزل عند

تهديداتك ...

لقد قلت كل ما أريد أن أقوله ، والآن سألقى

إليك بالكلام الأخير :

— اذهب من هنا بسرعة أو أضغط زر الجرس !

فهجم عليها بقفزة واحدة ، ودفعها بعيداً عن

المنضدة ، وأمسك بها ملصقاً جسمها بالجدار ،

وضحك ضحكاً صامتاً ... فداخل للفزع قلب المرأة :

— أمتقدين أنك قوية ؟ أنتشبهين بالرجال ؟

إنك أنت المجنونة لثقتك بهؤلاء الخدم الذين هم من

كافة الأجناس باستطاعتي الآن أن أذبحك ، وأن

أجزع عنك أمام أعينهم ، وأؤكد لك أنهم لن يرفعوا

إصبعاً للدفاع عنك . سيتسللون سائحين وسينسحبون

كالأرانب حتى اللحظة التى ينتهى فيها كل شيء ...

فارتفعت « م » لهذه الألفاظ التى نطق بها

الرجل بوقاحة مخيفة ، وهاجت لتخلص منه حتى

— وأنت ! إنك تتكلم كثيراً ، فاسمع هذه الحكمة الغالية : « إن الكلب الذي يموى دائماً لا يعض أبداً » قالت ذلك بلهجة هادئة رصينة — إن أعنقد أبداً أنه من الصعب ذبح أى إنسان . فأجابته بنهر :

لقد فهمت من كلامك المتتابع أن هذا هو مشروعك الأول في الجريمة ! وبأسرع من لمح الطرف ، ضربته بجمع يدها على ذراعه بكل ما لديها من قوة ، فانقلبت المديّة من أصابعه المتشنجة وركبته يشتم من جديد ، وأسرعت بخفة ورشاقة فوضعت قدمها على المديّة الملقاة على الأرض وقالت له بلهجة صارمة :

— إذهب واجلس هناك قرب النافذة ! لقد تبدل الموقف ، ونرى المرأة الآن بدورها تاقى الأوامر أطاع الرجل الأمر بصمت ، راضياً بكل شيء . فأنت وجلت تجاهه وقالت :

— أين تقطن ؟
فأجاب برغمه :
— أقطن حي « لوفيس ستريت »
— حقاً إن ذلك موافق جداً لرجل أبيض للبشرة !

فقال الرجل بوحشية :
— لا تنهكى من فضلك ، إنني قانع جداً بوجود سقف بطلنى
فأتمت « مى » كلامها دون أن تنقبه إلى غيظ الرجل وقالت :

— ما اسمك ؟
— ماذا تفيدك معرفة اسمي ؟ هل لديك رغبة في كتابه قصتي المخجلة ؟

أنفضى بها الأمر إلى أن عضت يده بقسوة ، فراح الرجل يهدد ويتوعد دون أن يتراجع ورفع المديّة بيده ليهوى بها على العنق الغض الرئيف ذى البشرة البيضاء الناصمة ، فلمعت المديّة بنور مشؤوم ومست رأسها الحادة عنقها مساً خفيفاً شمّرت بأن قواها خارت ، وأن قلبها يتلوي من الألم ، وأن أعصابها قد تشنّجت ، ولكنها برغم ذلك كله استطاعت بما لديها من شجاعة أن تحتفظ بابتسامة على شفّتها الجافتين الراجفتين ، وراحت في سرها تدعو الله وتطلب المونة منه وعاد الرجل فصاح بها مهدداً وأطبقت شفّتها على أسنانه البيضاء :

— أين تخبئين مالك ؟ إنها المرة الأخيرة التي أسألك فيها
فرففت إليه عينها الواسعتين الزرقاوين وسألته قائلة :

— لماذا تتردد في إزال الضربة للقاضية ؟
رجل أبيض البشرة يذبح امرأة من بنات جلدته في هذه البلدة المتوحشة ؟ إننا نسمع بأمثال هذه الوحشية عن الزوج ، ولكننا لا نسمع بمثلها أبداً عن مواطنينا بيض البشرة

ولحت شعاعاً من الاضطراب يلوح في عيني الرجل المظلمتين ، فصمتت وأطرقت . فقال بلهجة فيها شيء من التضرع والتوسل :

— لا تدعيني أصبح قاتلاً من أجل شيء حقير نأفه . أعطيني ما يمكنك إعطاؤه . مائتا روبية تكفيني فضحكك « مى » وقالت :

— رغبتك في أن لا تصبح قاتلاً جعلتك مضحكاً فأغمض الرجل عينيه وقال :
— أرى الشتاء سيملة عندك

— لا تخف وأجب على سؤالى

فقال بلهجة شرسة :

— فرانسيز

فكرت الفتاة قليلاً ثم سأله برفق واضمة يدها على منكبيه :

— فرانسيز ، هل أنت محتاج حقاً للمال إلى هذه الدرجة ؟

فضحك بمرارة وقال مجيباً :

— محتاج للمال ؟ يا له من تهكم مرير ! أنظنين أنى تهيات لفتلك رغبة فى القيام بحركات رياضية أمرن بها جسدى ؟ إننى لاحظتلى إذ أن شجاعتك صدتنى . ولن تكون لدى القوة الكافية لأجمل هذه المدية الرهيبة تموص فى عنقك الجميل الذى تنتظر بهدوء

فضحكت لقوله . وإنها تستطيع أن تضحك ملء شديها دون وجل ولا خوف ، إذ علمت أنها قد رجحت المعركة

— ألم تكن جاداً فى هذه اللاحظات الفاسية التى أمضيتها بسكرات نفسية لا تحتمل ؟

— لا تضحكى ! لقد كنت مجنوناً ، وسأغلق عيني فى اللحظة التى تموص فيها المدية فى عنقى .

— هذا فظيع .

واضطربت «ى» لكبرى الاضطراب للسابق وقالت بعد صمت حزين :

— فرانسيز ، سأعطيك مالاً ، كم يلزمك ؟ فقفز فرانسيز ووقف أمامها ناظراً إليها بيلاهة وقال :

— لن أستطيع أبداً أن أقبل الآن . وأصبح شااحب اللون جداً .

فقهقهت ملء شديها ، وألقت بجسمها على كرسى قريب وصاحت قائلة :

إن فكرة البطولة تمود إلى بساطتها . منذ لحظة كنت تريد أن تقتلى بلا رحمة ولا شفقة لتسرقنى ، والآن لا نستطيع أن نقبل شيئاً هو بنظرك أشبه بالصدقة ! حقاً إن الرجال لديهم أدب مسل . وضحكت وفى هذه الأثناء سمع طرق خفيف على الباب ، فدلّت «ى» الرجل على مكان يستطيع أن يختبئ فيه ، ثم فتحت الباب .

— ماذا حدث يا أنك لا تشالام ؟

فأجاب الخادم :

— القديس أبرنا أنى ليراك

— حسن ، قل له ينتظرنى فى البهو ، أنا قادمة الآن .

ولما اختفى الخادم ، أخرجت فرانسيز من مخبئه وقالت له :

— تعال معى ، لقد دعوت الأب « دوران » هذا المساء لتناول طعام العشاء وتستطيع أن تأكل ممنا فصاح الرجل وهو يشير إلى ثيابه الرثة ويديه الوسختين :

— كيف يكون هذا ؟

— سأدلك على غرفة الاستحمام ، ومن السهل عليك أن تستحم وتصبح لائقاً بالمقابلة ، ثم انحنت والتقطت المدية المطروحة على السجادة وقالت :

— سأحتفظ بهذا الضيف الثقيل كذكرى للحادث ، بعد أن أذكر أن امرأة وحيدة فى الحياة ليست أبداً فى أمان على نفسها ومالها

فتملكته الدهشة ولم يخرج جواباً وتبعها ، فتركته عند منضدة الزينة ، وكانت عالة أنها لم تنج من الخطر تماماً ، ولكنها كانت تدرك أنه يجب من أجل إنقاذه

فنهض فرانسيز وقد احمر خدها من الخجل ،
وتناول المال من يدها وقبض عليه بيده اليمنى بحركة
عصبية ، ولاحظ القس اضطرابه ، فقال له ليقطع
حبل الصمت الثقيل الذى أعقب ذلك :

— يظهر لى أن الكتب التى بعثها للآنسة «مى»
قيمة وثمينة ، بل من الواجب أن تكون كذلك ،
إذ أنه من الصعب الرضى بقراءة كتب من نوعها
ثم أضاف قائلاً :

— أتقبل زيارتي لك فى أحد الأيام المقبلة ؟

فتضايق فرانسيز واضطرب وأجابه قائلاً :

— أأ... أخاف كثيراً ألا تستطيع أن
تزورني حيث أعيش... إنه حى سىء مغمور الذكر
فى راجون الحى الوضيع... إننى أخجل
فقال له القس برفق ولين :

— لا تخجل أبها الشاب ، لا يضيرنا المكان
الذى نقطنه ما دمنا نعيش بمحبة وفضيلة ، على أننى
أعترف أن رفقة السوء تفسد المرء ، فلماذا لا تترك
هذا الحى ؟

فأجاب الشاب متجنباً نظرة «مى» للنافذة :

— إن ثروتى لا تساعدنى على ذلك

وكان القس وافر الذكاء ، وذو إلمام واسع بطبائع
البشر ، وسريع الفهم ، ففكر فى نفسه وهو ينظر
إلى الشاب نظرة ذات معنى ثم قال له :

— لقد أعجبني يا بنى ، وبما أن الآنسة «مى»
تعرفك فلا حاجة لى بتوصية أخرى لتكون مقبولاً
لدى . عندى مشروع أود أن أعرضه عليك ...
إننى قد كبرت ، ولا أزال محتاجاً لرأس مفكر شاب
يدير لى أعمالى ويتسلم حساباتى ، وفى دارى غرفة
فارغة ، وأظنك ستقبل الحياة قربى إلى أن تجد عملاً
أكثر كسباً ومغنياً ، ما رأيك فى ذلك ؟

أن تظهر له أنها ثابتة الجأش ، وبكل بساطة وسذاجة
ذهبت لتقابل ضيفها ومدعوها فى البهو

كان الأب «دوران» ينتظر «مى» بهدوء
وصبر ، فأقبلت ترحب به وتكلمه فى كل شىء دون
أن تشير فى حديثها إلى الحادث المضحك المبكى

وسمعت الفتاة بعد قليل صوت خطوات الرجل
المتردة خارج الباب فهضت لاستقباله ، ولكى تبعد
عنه الضيق والخجل قدمته بلباقة إلى القس الكهل قائلة :

— السيد فرانسيز

وسار الثلاثة إلى غرفة الطعام حيث كان الخدم
للبرمانيون والهنود حفاة الأقدام يعملون بصمت ،
وتنزل أقدامهم على البلاط الرخامى كالآشباح

وقد أزعج القس وجود هذا الشخص للثالث
الغريب ، ولكنه لم يبد ذلك من نفسه ولم يشر إليه
فى كلامه ، وقد بدأ الحديث بين الثلاثة فى موضوعات
تافهة ثم تطور حتى أصبح ودياً وأغزر مادة حتى
أنه شمل الفن والدين والأدب والموسيقى ، واستأنس
الرجل تماماً وراح يتكلم بحمد ، ويحاول أن يظهر
بمظهر الثقاف الربى تربية سامية ...

ولاحظت «مى» أن الرجل يبذل جهداً عظيماً
ليقمع شهوة الجوع التى قوبت فى نفسه ، فانفطر قلبها
رحمة له وشفقة عليه وبدأ العامام

وبعد انتهائهم منه ، عادوا للبهو كى يشربوا
القهوة ، فاعتذرت «مى» واستأذنتها فى الخروج
برهة قصيرة ، وعادت إليهما سريعاً حاملة بيدها
غلافاً قدمته إلى المعتدى بمذق قائلة :

— هاك ياسيدى المال الذى لك عندى ، وأرجو
أن تجد هذا المبالغ كاملاً غير ناقص ، وأنا موقنة
أن حكى سيكون صائباً على الكتب النفسية
التي بعثتها !

— لماذا ؟ هل ذلك ضروري يا بني ؟ أليس من الأوفق والأحسن أن تصمت وتحفظ مرك في صدرك لتبقى احترامنا لك على الأفل فأحس الشاب بالدموع تبلل أجهفانه وقال : أقسم لك بأنك لن تجد الوقت الذي تأسف فيه وتندم على عملك النبيل هذا . إنني مدين للآنسة « م » بأشياء كثيرة . إن من الواجب على أن أعذر إليها لأخطئ بعفوها ، إذ أنني أرغب في أن أنال هذا العفو ولو كان الثمن إهانات عظمى . إنك لن تستطيع أن تشك في وداعتها وصفاء قلبها فنظرت إليه « م » وكانت ترى أمامها مستقبلاً باهراً . فضحكت كي تشجمه وقالت :

— إن الأب « دوران » صالح وتقي ، وأرجو أن يحمل له بين طيات قلبك الاحترام والحب اللذين يستحقهما . ويجب عليك قبل كل شيء أن تقرب صفحاً عن الماضي وأن تحاول نسيانه وتلقيه وراءك بعيداً .

— أعدك مخلعاً يا سيدي أن أفعل كل ما أستطيع لأنال تقدير مواطني ، ولن أنسى قط أنك خلصتني من نفسي وأنقذتني منها

وبعد دقائق ممدودة ، ودعت « م » الرجلين وعادت إلى البهو وهي مطرقة تفكر . ورفعت رأسها فرأت على منضدة صغيرة نحاسية ، غلافاً أبيض ، ولما رفعت يدها وفتحت وجدته فيه المائتي الروبية التي قدمتها للشباب

فسارت إلى غرفتها وأدهشها أنها اكتشفت نفسها حساسة في هذا الرجل الذي كاد يصبح قاتلاً وسقط جسمها فجأة على السرير وهي تلهث ، وشعرت إذ ذاك أنها أضف وأوهن من طفل صغير

ناجي العنقاوي

دمشق

كانت « م » تنظر إلى النفس بفزع ، وقد داخل نفسها فجأة خوف عليه ، أفتسكت وتترك هذا الفصل من للفضيلة ونبل النفس يجري إلى النهاية ؟ ... وقبل أن تفتح فيها تكلم الرجل ، فأصمت إليه وهي دهشة مأخوذة :

— لقد غمرت نفسي بلطامك وحنائك يا بني ، ولكن ليس لدى مال أدفعه للغرفة ، ليس عندي إلا ثمن الغذاء !

— لا تفكر في هذا يا بني ، فستعمل لي وسأبقى مديناً لك ، إنه لمحضني التفكير في أنك مريض لحياة سيئة فاسدة . أليس لديك كلام آخر ؟

شعر الشاب أنه مشرف على ساحل من المعروف لاحدله ، لقد صادف في يومه هذا كثيراً من أمثلة نبل النفس وصلاحها ، وبقيت آثارها تغمر نفسه ، وتراهي له أن العالم كله يريد أن يحمله ما لا يطيق من الفضائل يحجوها السيئات التي ارتكبتها ... وعم جسمه اضطراب شديد ، وصعد في صدره شقيق باع عنقه ، وبدافع نفسي قوي صاح بالنفس الهرم قائلاً :

— إنني لست جديراً بهذا الكرم العظيم ... إصغ إلي يا أبت . إن شرف نفسك ونبلها قد أورتاني عذاباً ، وأدري أن أحسن طريقة هي إطلاعك على حالي وحقيقتي . إن الآنسة « م » لم تقل لك شيئاً كما يبدو لي ، وأنت لم تعرف الحادث ، فن واجبي أن أورد على مسامعك كل تاريخي الرهيب

فأقبلت عليه « م » بوجهها وكانت راضية كل للرضى عن هذا القول الذي صدر من الشاب ، وأيقنت أنه جدير بالمال الذي وهبته إياه وقالت :

— إنه محق في ذلك يا أبت

فقال النفس :